رأي وحوار

الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم

محمد الحسن بريمة إبراهيم*

تحرص مجلة إسلامية المعرفة على تحريك العقل المسلم المعاصر وتوظيف طاقاته في النظر والتدبر والحوار. يأتي هذا البحث في إطار التدبر في تاريخ البشرية على هذه الأرض وواقعها المعاصر والآفاق الممكنة لمستقبلها، وذلك في ضوء ما يفهمه الباحث من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. فمع اليقين بأن الكسب البشري، في عمران هذا العالم، ما تمّ منه وما يمكن أن يتم، إنما هو بعلم الله سبحانه، ووفق سننه في الكون والحياة، فإن الباحث يجتهد في فهم النصوص بصورة غير مألوفة، لكنه يستأنس بما ليس من المحال أن يكون هذا الفهم صواباً من جهة، وبمعطيات العلم الحديث من جهة أخرى. وبذلك يأتي هذا الاجتهاد، في التعامل مع الكتاب والسنة دعوة للأمة المسلمة أن يكون لها حضور ملموس في عمران العالم، وترشيد حضارته.

التحرير

مقدمة:[1]

هذا بحث في القرآن الكريم لإيجاد رابط موضوعي ومنهجي يربط بين العمل الإنساني والخَلْق الكوني، لأنَّ الكون كلّه (السماوات والأرض، وما بينهما) لم يُخلق إلا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً. وهذا يقتضي أن يكون هذا الكون (مسخراً للفعل والعمل الإنساني. وفي إطار الكون المسخر للإنسان فإن الأرض تحديداً هي موضع استخلافه ومنصّة انطلاقه إلى الكون. والاستخلاف يقتضي التمكين المتضمن للتسخير، كما يخبرنا القرآن الكريم.

هذا الربط لا بدّ منه لسببين، الأول: أن هناك تداخلاً سببياً بين الفعل الإنساني من جهة والظواهر الاجتماعية والطبيعية التي تكتنف حياة الإنسان من جهة أخرى. وهو تداخل ينجم عن تداخل آخر يسبقه بين الفعل الإنساني في الكون من جهة، والفعل الإلهي المهيمن والمصدّق من جهة أخرى.

---

* دكتوراه في الاقتصاد من جامعة يورك بإنجلترا؛ سنة ١٩٨٤. أستاذ/دكتور في معهد إسلام المعرفة بجامعة الجزيرة بالسودان. باحث في قضايا الرؤية القرآنية للعالم. البريد الإلكتروني: mbiraima@gmail.com

[1] أزجي شكري للأخ الدكتور فتحي حسن ملكاوي على تهذيبه لهذا البحث حتى أصبح مناسباً للنشر بمجلة إسلامية المعرفة. وللأخ الدكتور قيس محمود حامد الباحث بمعهد إسلام المعرفة على اقتراحه عنوان هذا البحث.

وقد عبّرنا عن كل ذلك من قبل من خلال مفهوم "سنة الله" التي لا تجد لها تبديلا، و"سنة الله" هي:[٢] "كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل الجماعة أو بعضها، وقد يكون التأثير مباشراً ينحصر في الفاعلين، وقد يكون مباشراً وغير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".

والسبب الثاني، لأهمية الربط بين الفعل والعمل الإنساني من جهة والخلْق الكوني من جهة أخرى، هو أنَّ استخلاف الإنسان يتم في إطار متغيرين كونيين أساسيين هما متغير "المكان" ومتغير "الزمان"، مما يقتضي إعطاء أهمية بالغة لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بشأنهما. ذلك أنَّ من يجهل المكان والزمان المحدِّديْن لتكليفه سوف يفشل في القيام بحق ذلك التكليف. إنَّ عقد الاستخلاف بين الله تعالى وبني آدم يمكن تصوره بوصفه عقد معاوضة؛ إذ أحد العِوضين (عمل الإنسان في الأرض) معجّل، والعِوض الثاني (الجزاء من الله تعالى) مؤجّل.

إنَّ محل عقد الاستخلاف متعين تحديداً في الأرض، ولكنَّ الأرض ليست هي أرض السماء الدنيا التي يحيا فيها البشر الآن وحسب، بل ندّعي، تأسيساً على القرآن الكريم، أنها سبع أرضين تتوزع في الكون، مما يجعل الكون كلَّه مجالاً لحركة الإنسان، وهو يسعى فاعلاً ومنفعلاً بهذا التدبير الإلهي العظيم(خطة الخلق العامة). وتقوم الفرضيات الأساسية لهذا البحث على أنَّ أرض التمكين للإنسان ليست أرض السماء الدنيا هذه وحدها، ولكن تمدُّها من بعدها ست أرضين تتوزع بين السموات السبع، وجميعُها مستخلف فيها الإنسان، وأنَّ الإنسان سوف تتوالى جهوده الاستخلافية حتى يبلغ بعلمه وعمله جميع الأرضين السبع. وها هو الإنسان وقد تسارعت حركته الكونية بحثاً عن امتداداته الأرضية، مستغلاً في ذلك تسخّير الله تعالى له ما في السموات وما في الأرض جميعا.

[٢] انظر بشأن هذا الموضوع بحثي بعنوان: "العلم والمعرفة بين رؤيتين للعالم: الظاهرة السببية حالة تفسيرية"؛ في موقعي: (biraima.net)

أولاً: حركة الإنسان في الزمان والمكان

هناك أمَدَان زمانيان ومدَيَان مكانيان حاسمان يحكمان ويحددان حركة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وهو يتقلب في ابتلاءات الاستخلاف؛ أمَد زماني ومَدَى مكاني خاص بكل إنسان في شخصه، وأمد زماني ومدى مكاني يحكم البشرية جمعاء. فالمدى المكاني للإنسان الفرد يمتد من مكان مولده إلى كل الأرض، يمشي في مناكبها ليحقق مغزى استخلافه، توحيدياً كان أم دنيوياً. لقد أخفى الله تعالى نوع رزق كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ومقداره ومكانه وزمانه، فلا تدري نفس ماذا تكسب غداً، كما أخفى المكان الذي تعيّن على كل إنسان الموت فيه، فلا تدري نفس بأي أرض تموت. كلُّ ذلك حتى يضرب الناسُ، مؤمنين وكافرين، في الأرض مبتغين من فضل الله، دون خوف من موت قد يتربص بهم، ودون يأسٍ من رزق قد ينتظرهم.

هكذا ينتشر الإنسان في الأرض جميعاً مستوطناً ومستعمراً، وقد تواردت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذه الحقيقة، نكتفي بالإشارة إلى آيتين هما: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥)؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَىِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ (لقمان: ٣٤).

أمَّا المدى المكاني للبشرية جمعاء فيتمدد في الكون المسخّر للإنسان بسماواته السبع وأرضيه السبع جميعا، كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣)؛ وكلمة "جميعا" في الآية هي صيغة الجمع التي يعبر بها الخالق سبحانه وتعالى عن قصده الأرضين السبع بإضافته "جميعا" إلى كلمة "الأرض" في كل القرآن الكريم كما سوف نبين لاحقا في هذا البحث، إن شاء الله.

ولن يصل مغزى الاستخلاف البشري إلى تمامه حتى يستوفي الإنسان رحلته الكونية ليسكن ويعمر الأرضين السبع التي خلق الله له ما فيها جميعاً، كما سنثبت ذلك أدناه بإذن الله، فمن الأرض خلق الإنسان، وفيها يحيا، وفيها يموت، ومنها يخرج تارة أخرى.

وآيات القرآن الكريم صريحة في هذا المعنى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٥).

أمَّا الأمد الزماني الخاص باستخلاف كل فرد مكلّف فهو مدة أجله الذي أجّله الله تعالى له في هذه الحياة الدنيا، فمن مات فقد قامت قيامته، وأما الأمد الزماني لاستخلاف البشرية فيمتد إلى قيام الساعة. قد أخفى الله تعالى اللحظة التي يموت فيها كل إنسان في إطار أمده الزماني الخاص به، ولكنه جعل العلم بجملة الأمد الزماني الذي تتمدد فيه حياة المكلّف في هذه الأرض ممكناً على وجه التقريب. فكل إنسان يعلم علم اليقين أنه قد يموت ليومه، أو غده، ولكنه يعلم أيضاً، من خلال التجربة الحياتية الممتدة لمليارات البشر، أن الإنسان الفرد في هذا الزمان، إذا سلِم من الآفات، يمكن أن يحيى ويعيش حتى المائة عام، أو تزيد، ومن ثم فإن متوسط العمر الاستخلافي المنتِج للإنسان في الأرض يتراوح بين الخمسين والسبعين عاماً، بحسب البيئة التي يعيش فيها الإنسان. هذا المتوسط يشكل الأمد الزماني الاستراتيجي الحاسم للفرد، وعلى أساسه يخطط لحياته الاستخلافية في الأرض، وهو الذي يسمح بعمارة الأرض؛ إذ لو أنَّ كل إنسان خطط حياته على أنه يموت غداً، أو بعد غد، وقد يموت فعلاً، لما عَمَر أحدٌ الدنيا، ولانْتَفَت حكمة الله تعالى من إنشاء الناس من الأرض واستعمارهم فيها، ولما عاد للاستخلاف مغزى، ولا للحساب والجزاء الأخروي معنى. فكل المجتمعات المعاصرة ترتب شؤون أفرادها في كل مجالات الحياة بناء على هذا المتوسط العمري الزماني. ولو افترضنا أن هذا الأمد العمري تغير فجأة فبلغ ما كان عليه في عهد نبي الله نوح عليه السلام، وهو الألف سنة، تزيد أو تنقص بحسب الإفادة القرآنية، لارتبكت حياة الأفراد والمجتمعات في هذا الزمان أيما ارتباك.

إنَّ الأمد والمحدِّد الزماني لاستخلاف البشرية جمعاء في الأرض هو قيام الساعة، وينطبق عليه تحليلنا لدلالات الأمد الزماني الخاص بالفرد أعلاه، فقد أخفى الله تعالى لحظة قيام الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا هو، ولا تأتينا إلا بغتة، وما أمرُها إلا كلمح البصر، أو هو أقرب. ولكن لما قال الله تعالى إنها اقتربت، وأكدت السنة النبوية ذلك،

صار من الممكن المقاربة النسبية لمقدار اقترابها حساباً، إما من خلال التقديرات النسبية لما مضى ولما تبقى من عمر الكون التي تأتي من علم الفيزياء الفلكية، وقد أذن الله تعالى بالنظر العلمي في خلق السموات والأرض، وإما بالجمع بين الدلالات الحسابية للحديث النبوي الصحيح بهذا الخصوص، والتقديرات الزمانية لما مضى من عمر الكون بحسب علم الفيزياء الفلكية. وقد تبيّن أن المدى الزماني لاقتراب الساعة يبدأ باللحظة ويمتد إلى مليارات السنين، وهو المحدِد الزماني لما بقي من استخلاف البشرية في الأرض. إذن، كما في شأن المدى الزماني الخاص بعمر الفرد في هذه الحياة الدنيا، فإن الساعة قد تأتي البشرية اليوم، وقد تأتيها غداً، أو بعد غد، فذلك على الله تعالى يسير، ولكنها قد تأتي بعد مليارات السنين، تماماً كما قد يموت الفرد لتوّه، أو غده، أو بعد غد، ولكنه أيضاً قد يموت بعد مائة عام.

إذن، كما في حال التوقعات الفردية، لو أن كل المجتمعات البشرية تبني تقديراتها، فيما يتعلق بنهاية الكون وقيام الساعة، على أن ذلك قد يتم غداً، أو بعد غد، لما أثاروا الأرض وعمروها، ولما أقاموا على ظهرها حضارة، ولما انطلق الإنسان يجوب الكون بسفنه وبمسابيره الفضائية، ولانْتَفَت حكمة الله تعالى الثاوية في "خطة الخلق العامة"، التي هي أساس الاستخلاف. لكن غالب المجتمعات البشرية تقيم رؤيتها للعالم إما على أن هذا الكون خالد لا يزول، وإما أنه سوف يزول ولكن بعد أمد بعيد، وكلتا الرؤيتين الزمانيتين تسمح بالعمارة، والحضارة التي تتراكم وتتوارث جيلا بعد جيل.

أما تلك المجتمعات التي تدير أمرها على أن الأمد الزماني لعمر الكون لا يعنيها، أو تلك التي ترى أن نهاية الكون باتت وشيكة، وأن الأمر أعجل من أن ننظر ماذا في السموات والأرض، أو أن نتفكر في خلقها، فهي مجتمعات سوف تظل على الدوام هامشية، خارج الفعل الحضاري. إنَّ الوعي بالأمد الزماني والمدى المكاني النسبي الذي يتحرك فيه الإنسان، وتتمدد فيه حياته، سواء في ذلك الأفراد والمجتمعات، أمر مصيري فيما يتعلق بالتصور والتخطيط ثم التنفيذ لما يمكن فعله في هذه الحياة الدنيا، في إطار المحدِدات الزمانية والمكانية.

إنَّ المنهج الذي سوف نتبعه في إثبات دعوانا المكانية والزمانية لاستخلاف الإنسان الأرضي، مما سبق ذكره، هو ما شاء الله تعالى أن نحيط به من علمه تدبراً في القرآن الكريم؛ بحثاً عن رؤية قرآنية كلية للعالم الطبيعي تكمّل الرؤية القرآنية الكلية لعالم الاجتماع الإنساني، التي بسطنا أهم مكوناتها المعرفية في "خطة الخلق العامة".[٣] ونأمُل أن تكون مدخلاً معرفياً للأمة الإسلامية إلى الكون الطبيعي، تستطيع من خلاله أن ترتاد الفضاء على بصيرة. والذي تيسّر من القرآن الكريم توسلنا إليه بأسئلة وجودية أجبنا عنها بفرضيات علمية تستند في علميتها إلى آيات بينات من القرآن الكريم، وإلى إمكان التحقق منها تجريبياً.

إنَّ المنهج المتبع في هذا البحث يرتكز على الإتيان بالمقدمات من القرآن الكريم ثم توظيف الاستنباط العقلي للوصول إلى النتائج. وأرى أن هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن الكريم بوصفه مصدراً للعلم الكوني التجريبي، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، سواء لأغراض الإيمان أو العمران؛ إذ نؤسس على رؤية القرآن للعالَم نظرياتنا وفرضياتنا العلمية، سواء استلهمناها من القرآن الكريم مباشرة، أو من الكون بضوابط منهجية من القرآن الكريم، ثم نتحقق من صحتها وجودياً باستخدام المناهج التجريبية المناسبة. فإذا استَيْقنّا من صحة الفرضية كنّا "كأمٍّ موسى تُرضع طفلَها وتأخُذُ أجرَها" من حيث تثويرنا للطاقات العلمية التي يذخر بها القرآن الكريم، ومن حيث حصادنا عائداً معرفياً في الوجود. وإن لم نبلغ اليقين في الإثبات حافظنا على نظريتنا وثابرنا في تحسينها بنائيا وتمحيصها تجريبياً، أما إن استيقنا من دحضها فلن يقدح ذلك في صحة الوحي، بل في صحة فهمنا له، أو صحة مناهجنا في بناء النظريات واستخلاص الفرضيات منه، أو في صحة مناهجنا التجريبية، أو في كل ذلك.

إنَّ القرآن الكريم، بوصفه عِلماً من الله تعالى خالق الكون، هو وحده العاصم للعلم البشري من الزلل المنهجي والانزلاق نحو النسبية المعرفية التي انتهت إليها التجربة العلمية الغربية بعد أن تم تحريف ما سبق من كتب سماوية. إنَّ العقل واللغة البشرية اللذين

[٣] انظر أبحاث المؤلف المتعلقة برؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، وكذلك مصطلح "خطة الخلق العامة" في موقع: biraima.net

يوظفهما الإنسان لدراسة الوجود والتعبير عن حقائقه لا تكفيان وحدهما لتمكين الإنسان من أساس يقيني من التصورات الوجودية يبني عليه معرفة موثوقة ليؤسس عليها حياة يطمئن بها.

وما أقدمه في هذا البحث يمكن أن يندرج في إطار الإصلاح العلمي الذي ندعو إليه، وهو إصلاح يبدأ من القرآن الكريم مصدراً للعلم وفلسفته ويتصوب نحو دراسة الكون، الطبيعي والاجتماعي، بوصفه دليل إيمان بالله الواحد، ومجالاً مسخراً ليبلو الله تعالى الناس فيه أيهم أحسن عملا. والعلاقة بين الوحي وبين الكون بوصفهما مصدرين للعلم الإنساني علاقة تفاعلية يثري العلم المتحصل من كل منهما فهم الإنسان لكليهما. هذا الإصلاح العلمي، بما هو فلسفة للعلم، يعبّر عن مرحلة الانتقال من رؤية العالم الدنيوية الغربية ونظامها المعرفي الوضعي المهيمنين على الأمة الإسلامية اليوم، إلى رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي التوحيدي اللذين ينبغي أن يُشادا على أنقاض ما هو قائم اليوم في بلاد المسلمين.

ثانياً: التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني

نشأ هذا الموضوع من فهمي لقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: ٧). ونفهم أن في الآية تعليلاً لخلق السموات والأرض، ولذلك سخر الله السموات والأرض للإنسان: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ١٣). جاء في تفسير "روح المعاني" للألوسي: (لِيَبْلُوَكُمْ اللام للتعليل مجازاً متعلقة بـ "خَلَقَ" أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم، ورتّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادئ وجودكم وأسباب معاشكم، وأودع في تضاعيفهما ما تستدلون به من تعاجيب الصنائع والعبر على مطالبكم الدينية، ليعاملكم معاملة من يختبركم). وجاء في تفسير ابن كثير: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: ٧) أَيْ: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِنَفْعِ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ

لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ .﴾ (ص: ٢٧)

إذا صح هذا الفهم فإن هذا يعني أن الله تعالى خلق السموات والأرض لحكمة تتعلق بالإنسان، وهذه الحكمة تتعلق تحديداً بابتلاء وامتحان الإنسان في عمله. وهناك كثير من التفاصيل التي تتعلق بهذا الابتلاء وطبيعته، ولكن الشاهد في هذا الحديث وما سوف أرتبه عليه لاحقاً من استنتاجات علمية أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن بداية خلق الكون (السموات والأرض)، وأخبرنا أن خلق الماء كان قبل خلق السماوات والأرض: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (هود: ٧). ﴿وَكَانَ﴾ هنا فعل ماضٍ دل على سبق خلق العرش والماء، ثم خلق السموات والأرض بعد ذلك؛ وخلْق الأرض وجعْلها تمّ قبل خلق وجعل السموات السبع رغم أنهما كانتا رتقا ثم فتقتا. ونستنتج من ذلك أن المادة التي خلقت منها السماوات والأرض واحدة في أصلها.

لقد وصف الله تعالى في القرآن الكريم الأرض، من حيث خلقها ومن حيث جعلها، وصفاً دقيقاً كما لم يصف مخلوقاً آخر، وإنما ذلك لأهميتها المركزية في (خطة الخلق العامة) التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض، وذكر أنه خلق ما في الأرض جميعا للناس. والآيات القرآنية كثيرة في بيان تهيئة الأرض بصورة تختلف عن بقية الأجرام. لذلك نسلّم بأنه حيثما ذكرت الأرض في القرآن الكريم، باستثناء يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وهو يوم القيامة، فالمقصود هو هذه الأرض التي فصّل القرآن الكريم وصف بيئتها، وأخبر أن الله تعالى بارك فيها وأصلحها لتناسب حياة البشر وما خلق لهم فيها من حيوان ونبات.

من عالم الغيب المطلق، ومن علم الله تعالى في أمّ الكتاب، جاء الكون إلى الوجود، متحيزاً في الزمان والمكان، ومتشكلاً عبر مليارات السنين، محكوماً بقضاء الله وقدره (كن فيكون) لينتهي يوماً ما كما بدأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤). والحمد لله أن العلم لم يعد ينازع في النهاية المحتومة للكون

الذي نعرفه. وفي إطار هذه التمظهرات الوجودية والصيرورة الزمانية يأتي الإنسان أيضاً من عالم الغيب ليستقر في الأرض محققاً مغزى الابتلاء، وحكمة خلق السماوات والأرض. وقد نَحَتُّ مصطلحاً لكل هذا التفاعل والنبأ العظيم في أبحاثي التي أشرت إليها أعلاه، وهو مصطلح "خطة الخلق العامة". وكما يعود الكون من حيث بدأ: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، يعود الإنسان الفاعل في هذا الكون من حيث جاء: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ (الأنعام: ٩٤)؛ إذ يقوم الناس ليوم الحساب فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

ولكي يستقيم منطق "خطة الخلق العامة" مع هذه البدايات والنهايات العظيمة للكون، فإن العقل يحكم بأنه فيما بينهما يُتوقع أن يأتي الإنسان، بأعمال عظيمة في صلاحها، أو في فسادها، تكافئ عظمة هذا الكون والحكمة من خلقه، وتكافئ نهايته وزلزلة الساعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ (الحج: ١)، وتكافئ المصير النهائي للإنسان: ﴿ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الشورى: ٧). من هذه القضية بالتحديد جاء السؤال الوجودي الأول، وهو الآتي:

١. الأرض التي نعرفها ونعيش فيها، هي من الصغر الجغرافي (مطلقاً، أو منسوبة إلى الكل الكوني) بحيث إنها، أولاً؛ لا تستحق وحدها أن يُخلق من أجلها ومن أجل ما يجري فيها كل هذا الكون المهيب ببداياته ونهاياته العظيمة التي ذكرناها آنفاً. ثم إنها بصغر حجمها هذا لا تمكّن البشر من الزيادة العددية المناسبة، أو أن يأتوا من الأعمال ما يكافئ في عظمته عظمة الخلق الكوني هذا. إذن ما هي حقيقة الأرض المستخلف فيها الإنسان المحققة لمبدأ التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني؟

النتيجة هي: لا بدّ من إعادة فهمنا لحقيقة الأرض كما وردت في القرآن الكريم.

٢. إن الأعمال التي جاء بها الإنسان منذ تمكينه في أرض السماء الدنيا التي نعيش فيها وإلى اليوم؛ مما وثّقه القرآن، أو دوّنته الأقلام، في صلاحها وفسادها، إذا استثنينا الرسل وحوارييهم، وقليلاً من الآخَرين من أهل الصلاح والفساد، من التواضع بحيث يحكم العقل، ما لم يناقض الوحي، أنها لا تساوي الحد الأدنى الذي يكافئ عظمة

بدايات ونهايات الخلق الكوني المرتبطة، من حيث العلّة، بهذا العمل الإنساني. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المفارقة بين تواضع الفعل الإنساني التاريخي وبين المطلوب منه بما يكافئ عظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (ص: ٦٧-٦٨).

إذن، نتيجةً: ينبغي إعادة النظر من المنظور القرآني في طبيعة الأعمال العظيمة التي يمكن أن يأتي بها الإنسان، والمجال الكوني الذي يمكن أن تتحقق فيه، بما يحقق التكافؤ المطلوب بين العمل الإنساني والخلق الكوني.

٣. إن تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعاً للإنسان، واعتبار ذلك ضمن مغزى التكليف الابتلائي: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: ٧)، يقتضي أن يُمكّن الإنسان من الوصول إلى تلك القوى المسخرة له، وتوظيفها فيما يعمل من صلاح، أو فساد، ولا سبيل إلى ذلك بصورة فعالة إلا بالحصول على علم دقيق بحقيقتها ومُتاحاتها، ويقتضي ذلك الوصول إلى مصادر تلك القوى المسخرة من سماوات وأرض. يعزز هذه الدعوى كثير من آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق: ١٢). فلكي نعلم حقيقة تنزل الأمر الإلهي بين هذه العوالم المهيبة يقتضي ذلك أن يجوب الإنسان هذه العوالم مستكشفاً. كذلك قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (نوح: ١٥-١٦)، يتعزز معناه وتتبيّن حجته إذا كان الإنسان قادراً على الاستكشاف العلمي لهذه السموات السبع، ليرى كيف خُلقت طباقاً، وكيف جعل الله في كل منها الشمس سراجاً والقمر نوراً، تماماً كقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشي: ١٧-٢٠). الخطاب هنا واحد بالنظر والرؤية العلمية في الكيفيات المتعلقة بهذه المخلوقات، وإذا كان الإنسان متمكناً اليوم من النظر العلمي في الكيفيات المتعلقة بالإبل والجبال والأرض لأنها في متناوله فإن منطق الخطاب القرآني المتسق يقتضي أن تكون السماء في متناوله كذلك، ولو بعد حين.

النتيجة: يقتضي هذا إعادة فهمنا لما جاء في القرآن الكريم عن علاقة الإنسان بهذا الكون المسخّر، وأبعاد فاعليته فيه.

ثالثاً: البعد الزماني للإنسان في الأرض ودلالته على حركته الكونية

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري: (حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا، بِالوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ».)[٤] ويمكن أن نفهم أنّ الفارق بين بعثتي وقيام الساعة كالفرق بين الأصبعين في الطول. ويؤكد القرآن الكريم قرب الساعة: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ (القمر: ١)، وأيضا قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ (محمد: ١٨).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ، وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ."[٥]

فكأن الباقي من عمر الدنيا حتى تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب من الوقت، وكثير من النصوص الأخرى تصرح بقرب قيام الساعة وبأنَّ أمتنا هي آخر الأمم. وفي عرضنا لهذه الآيات والأحاديث وما يمكن أن نستخلصه منها، لا بد أن نؤكد ما يأتي:

١. ليس من أغراضي، ولا ينبغي لي، الخوض في متى تقوم الساعة، فذلك أمر اختص به الله تعالى كما قال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

---

[٤] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، كتاب: تفسير القرآن، باب: يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا، ج٦، حديث رقم٤٩٣٦، ص٩٤.

[٥] المرجع السابق، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل القرآن على سائر الكلام، ج٦، حديث رقم٥٠٢١، ص١٣٠.

٢. غرضي الأساسي هنا أن أوظف الدلالات الحسابية للحديث الشريف مستفيداً من تقديرات علم الفيزياء الفلكية لما مضى من عمر الكون، لدعم نظريتي المتعلقة بالحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم.

٣. يحفزني على البحث في هذا الموضوع أن كثيراً من المسلمين اليوم يعزف عن بذل الوسع في العمران الاستخلافي، ويثبطون همم غيرهم عن ذلك، بدعوى قرب قيام الساعة، فإذا استطعنا أن نعطي أرقاماً علمية نسبية عمّا تبقى من عمر الكون، سواء باعتمادنا على علم الفيزياء الفلكية وحده، أو جمعاً بين الدلالات الحسابية للحديث الصحيح، والتقديرات الحسابية لعلم الفيزياء الفلكية، وما يعنيه ذلك بالنسبة لقرب الساعة، وبالنسبة لما يتوقع أن تنجزه البشرية خلال ذلك فلربما عادت الأمة إلى جادة الصواب في تحمل مسؤولياتها الاستخلافية.

إنَّ الدلالة الحسابية لهذا الحديث الشريف بالنسبة لي هي أن الأصبع الوسطى في طولها تعبّر عن جملة عمر الكون (السموات والأرض) منذ بداية خلقه إلى نهايته بقيام الساعة، بينما الأصبع السبابة في طولها تعبر عما مضى من عمر الكون إلى عهد بعثته، ﷺ. وأجد فيما يمكن نقله من أقوال العلماء المسلمين، السابقين والمعاصرين، ما يدعم هذا الفهم. فالحديث إذاً ينسب ما مضى من عمر الكون إلى جملته، وأن هذه النسبة تساوي نسبة الأصبع السبابة إلى الأصبع الوسطى، من حيث الطول، مما يعني أننا لو استطعنا علميا أن نقدّر ما مضى من عمر الكون فإننا نستطيع كذلك أن نقدر ما تبقى منه، إذا استطعنا أن نقدر نسبة الأصبع السبابة إلى الوسطى. نحن إذن نعتمد فيما نحن مقدمون عليه على، صحيح الحديث الشريف فيما بقي من عمر الكون، وما وصلنا إليه من علم الفيزياء الفلكية.

إن ما استقر في فهمنا لنصوص القرآن والسنة أن عالم الدنيا يعيش شيخوخته، ومع ذلك فإن بعض دراسات الفيزياء الفلكية ترى أنَّ الكون حالياً لا يزال في مرحلة المراهقة، بعمر زمني يتراوح ما بين عشرة إلى خمسة عشر بليون سنة.[٦] وبعض المراجع العلمية تحدد

[6] Adams, Fred and Laughlin Greg. T*he Five Ages of the Universe: Inside the Physics of Eternity*, Free Press 2000, p xiii.

هذا العمر بحوالي (١٣,٧) بليون سنة.[٧] أما الموقع الإلكتروني الحكومي لوكالة الفضاء الأمريكية فقد جاء فيه أن أحدث التقديرات لعمر الكون هو ١٣,٨٢ بليون سنة.[٨]

ليس غرضي دقة الأرقام وإنما الصورة الكلية للتقدير الزمني وهو أن ما مضى من عمر الكون يقدر علمياً حتى الآن بمليارات السنين. ويمكن أن نضع نسباً حسابية مختلفة تعبّر عن نسبة الأصبع السبابة إلى الأصبع الوسطى. فإذا قدّرنا أن نسبة السبابة إلى الوسطى تساوي تسعة أعشار فهذا يعني أن تسعين في المائة من عمر الكون قد مضى، ولم يبق على نهاية الدنيا إلا عشرة في المائة فقط، وهذا يفيد معنى القرب حقاً، ولكن هذا القرب الشديد عندما نترجمه إلى أرقام زمنية بتقسيم ١٣,٨ على ٩ ليكون الناتج حوالي ١,٥مليار سنة. وإذا كان نسبة أصبع السبابة إلى الوسطي هي ٨ إلى ٩ فإن المتبقى من عمر الدنيا ١,٧٥ مليار سنة. وإذا افترضنا أن النسبة هي ٧ إلى ٨، فإن المتبقي من عمر الدنيا ٢,٠٠ مليار سنة، وهكذا. فالمهم ليس دقة الأرقام بقدر ما هو أمده الذي يقدر بمليارات السنين.

لذلك فإن الأمد الزمني لاقتراب الساعة، ونهاية الاستخلاف الإنساني على الأرض، بحسب حساباتنا هذه، يمتد من يوم واحد إلى مليار ونصف من السنين، بينما الأمد الزمني الفردي يمتد من يوم واحد إلى مائة عام. والقضية الجوهرية التي أريد التأكيد عليها هي أن نتصور، انطلاقاً من إنجازات وإخفاقات الواقع البشري الحالي، ما يمكن أن يفعله ويعمله الإنسان من صلاح، وفساد في الأرض خلال هذا الأمد الزماني المتطاول لعمر الكون الذي يمتد إلى مليارات السنين، وما يمكن أن ينجزه في مجال العلم والتكنولوجيا وتوظيفاتهما الكونية، وما سوف يؤول إليه أمر الأرض من حيث العمران، وسنن الله تعالى الحاكمة لهذا التدافع.

الذي استخلصه مما سبق، ومما سوف يلحق في هذا البحث إن شاء الله تعالى، هو أن استخلاف الإنسان القائم على الابتلاء الذي من أجله خلق الله تعالى السماوات

---

7 Dinwiddie, Robert, and Others. *Universe*, New York: DK; Rev Upd edition (September 17, 2012), page 27

8 http://www.nasa.gov/mission_pages/planck/multimedia/pia16873.html#.VrZk3Pl97Z4

والأرض إنما هو في بداياته، وسوف يمتد زماناً، تفاعلاً وتدافعاً، حتى يبلغ مداه الزماني الملياري، وسوف يمتد مكاناً حتى يبلغ مداه الكوني السماوي.

هذه الدلالات الحسابية يحتملها الحديث النبوي الشريف، ولا تناقض الدلالة المعنوية التي وردت في حديث (أنا وكافل اليتيم كهاتين) المستخدم فيه ذات الأصبعين، فهما يشتركان في معنى القرب، إلا أن القرب في الحديث الأول يمكن، من حيث المبدأ، قياسه رقميا، بينما القرب في الحديث الثاني لا يمكن إلا الإحساس به معنوياً. وعلينا أن نتذكر أنه يمكننا أن نحسب بدقة كبيرة بعض ما تبقى من عمر الساعة الذي ورد في الحديث، وهي الفترة ما بين رواية الحديث إلى يومنا هذا، مما يعطي، من حيث المبدأ، المشروعية لتوظيف العلم في تقدير آجال عمر الكون ومن ثم قرب الساعة، لا لحظة قيامها.

هناك أيضا قضية الفجوة الزمنية الهائلة بين عمر الكون التقديري (١٣,٨ مليار سنة) بحسب علم الفيزياء الفلكية، وعمر قدوم الإنسان إلى الأرض بحسب ما كشفت عنه حتى الآن حفريات علماء الأنثروبولوجيا وتقديراتهم.

ويجب أن يكون واضحاً كذلك أننا لا نحسن الظن بنظريات الأنثروبولوجيين فيما يتعلق بأصل الإنسان ونسبته إلى القرود وتطوره بعد ذلك، فالقرآن الكريم حسم هذا الأمر بآيات كثيرة تتعلق بأصل بني آدم الذي هو نبي مكرم خلقه الله تعالى بيديه في أحسن تقويم، وعلَّمه الأسماء كلها، ثم أهبطه إلى الأرض. ولكن ما يهم بحثنا هذا من مقولات الأنثروبولوجيا هو العمر الزمني للإنسان في الأرض، فليست هناك إشارة في القرآن الكريم، أو السنة النبوية الصحيحة، حسب علمي، إلى كم مضى من الزمان منذ أن هبط الإنسان إلى الأرض إلى بعثته ﷺ، إلا أن القرآن الكريم يعطي موجهات منهجية بالسير في الأرض والنظر في كيف بدأ الخلق، وكيف كان عاقبة الذين من قبل، مما يعطي مشروعية علمية لعلم الأنثروبولوجيا فيما ليس فيه نص موحى من تاريخ الإنسان على الأرض. لذلك يظل تقدير خمسة مليون عام على وجود الجد البعيد للإنسان في الأرض، رغم افتقاره إلى الدقة العلمية، هو أفضل تخمين علمي لدينا حتى الآن، لا سيما وأن الآثار التي تركها الأقدمون وراءهم في الأرض لا توحي بمدى زمني هو أبعد من ذلك. أما

الإنسان كما نعرفه بهيئته التي هو عليها اليوم فلم يتجاوز عمره في الأرض المائتي ألف عام بحسب ما تشير إليه الدراسات العلمية.

والإشكال الوجودي الذي يطرحه البعد الزماني للإنسان يأتي من فهمنا القرآني أن الكون(السماوات والأرض وما بينهما) إنما خُلِق لحكمة تتعلق بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، فكيف نعقل أن الكون الذي خُلق من أجل الإنسان ظل في انتظاره متشكلاً عبر مليارات السنين ثم يأتي الإنسان الـمُستخلف في آخر خمسة مليون عام لتقوم الساعة، ولمَّا يتعرّف الإنسان بعد حتى على الأرض التي هو فيها، دَعْك عن كل الكون الذي من أجله خُلق، وفيه يُبتلى، وبعمله فيه يحاسب!

أضف إلى ذلك أن عدد سكان الأرض خلال هذه الفترة الزمنية المحدودة من عمر الإنسان كان قليلاً جداً، حتى من إشارات القرآن الكريم بهذا الخصوص: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (الصافات: ١٤٧)، والمجتمعات البشرية متفرقة، وتفصل بينها جغرافياً مساحات شاسعة من اليابسة والبحار، ولم تتكاثر أعداد البشرية لتصل إلى ما هي عليه اليوم إلا في القرون الأخيرة.

إذن نستنتج من كل هذه الدلالات الحسابية نتيجتين:

النتيجة الأولى: أنه يصعب أن نتصور أن يكون الخالق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون، الموغل في القدم، ببداياته ونهاياته العظيمة، الذي جعل الإنسان فيه للحركة والابتلاء، من أجل هذه الفترة الزمنية المحدودة التي مكثها هذا الإنسان في هذه الأرض، وبأعداده وأعماله المتواضعة كمّاً ونوعاً.

النتيجة الثانية: أن الأمر أقرب عقلاً إن سلّمنا بأن اقتراب الساعة ونهاية الكون إنما يقدر بمليارات السنين، كما جاء في حساباتنا التقديرية السابقة، لأن هذه المليارات المتبقية للإنسان كخليفة عن الله في الأرض يترتب عليها، تحقيق تكافؤ نسبي بين عمر الأرض وعمر الإنسان المستخلف فيها، بما يزيل نسبياً إشكال الفجوة الزمنية بين عمريهما، ويترب عليها كذلك توقّع نتائج عظيمة من فعل الإنسان في هذا الكون، فيما تبقى من عمره، تكافئ عظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية.

هذه النتائج العظيمة المتوقعة لعمل الإنسان، في فسادها وصلاحها، هي موضوع استشرافنا للحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم فيما تبقى من عمره الدنيوي، مما سوف نستعرضه فيما يلي من هذا البحث.

رابعاً: الفرضيات العلمية المجيبة عن الأسئلة الوجودية

سوف أستعرض فيما يلي الفرضيات العلمية التي استخلصتها من القرآن الكريم، وأحسب أن مضامينها تعطي إجابة شافية لما سبق من أسئلة وجودية، ولكنها أيضاً سوف تعيد فهمنا لعلاقة الإنسان بهذا الكون، وسوف أدعم كل فرضية بالآيات القرآنية التي استوحيتها منها، إن شاء الله تعالى.

الفرضية الأولى: الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان.

هذه فرضية قويّة لأنها تشترط أرضاً في كل سماء من السماوات السبع، وسوف نستغني لاحقاً عن هذا الشرط مع الإبقاء على فرضية الأرضين السبع. هذه الفرضية تلخص استجابة القرآن الكريم، كما فهمتها، للسؤال الوجودي المتعلق بحقيقة الأرض، وهي أن هذه الأرض التي يعيش فيها البشر الآن هي أرض السماء الدنيا، ولكن لها ما يماثلها من الأرض بقمرها وشمسها في كل سماء من السماوات السبع. هذا الفهم استنبطته من قول الله تعالى الوارد في الآيات الآتية:

١. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ (الطلاق: ١٢).
٢. ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٣).
٣. ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزمر: ٦٧).
٤. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٩)

٥. ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (نوح: ١٥-١٦).

٦. ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (العنكبوت: ٢٢).

٧. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٢٩).

أستنبط من الآية الأولى أن الله تعالى خلق سبع سماوات تماثلهن من حيث العدد سبع من الأرض، وأستشهد لذلك بما جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية؛ إذ يقول: "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }، كَقَوْلِهِ تعالى: { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا }، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ } أَيْ سَبْعًا أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: "مَنْ ظَلَمَ قيد شبر فِي الْأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ". وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: "خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ". وَقَدْ تقدم في سورة الحديد ذِكْرَ الْأَرَضِينَ السَّبْعَ وَبُعْدَ مَا بَيْنَهُنَّ وَكَثَافَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ، وَكَذَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ"، وَقَالَ ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ } قَالَ: لَوْ حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها." (رواه ابن جرير عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما)).[٩]

وجاء في "التحرير والتنوير" لابن عاشور قوله "وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوا الْمُمَاثَلَةَ فِي عَدَدِ السَّبْعِ وَقَالُوا: إِنِ الْأَرْضَ سَبْعُ طَبَقَاتٍ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هِيَ سَبْعُ طَبَقَاتٍ مُنْبَسِطَةٍ تَفْرُقُ بَيْنَهَا الْبِحَارُ. وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هِيَ سَبْعُ طِبَاقٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَهَذَا يَقْرُبُ مِنْ

[٩] ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٤، ص٣٨٥.

قَوْلِ عُلَمَاءِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ (الْجُيُولُوجْيَا)، مِنْ إِثْبَاتِ طَبَقَاتٍ أَرْضِيَّةٍ لَكِنَّهَا لَا تَصِلُ إِلَى سَبْعِ طَبَقَاتٍ."[١٠]

إذن جمهور المفسرين يجعل المماثلة في العدد من حيث هي سبع أرضين، غير أنه سبحانه وتعالى استخدم صيغة الجمع للسماوات، ولم يستخدمها للأرض، مما يدل على أن كل سماء تختلف بصورة من الصور عن السماوات الأخرى، والأحاديث النبوية الواردة بشأنها تؤكد ذلك، ولكن الأرض واحدة بسبع نسخ متماثلة بيئياً ومن حيث الغرض. مثال ذلك أن تكون لديّ صورة فوتغرافية واحدة ولكن لي منها سبع نسخ، فلا أقول لدي سبع صور بل صورة واحدة منها سبع نسخ، ولكن إن كانت لدي سبع صور فوتوغرافية تختلف عن بعضها من حيث هيئة المصَوَّر، أو مكان التقاط الصورة، فهنا لا بدّ من استخدام صيغة الجمع بشأنها. الحقيقة المطّردة في القرآن الكريم هي استخدام صيغة المفرد للأرض حيثما وردت مع مقابلتها بالسماوات بصيغة الجمع غالباً.

في الآية الثانية أيضاً ما يدعم الفرضية الأولى بأن في كل سماء أرضاً مماثلة بيئياً لأرضنا هذه، فبجانب ذكر الأرض مفردةً مقابل السموات، نجد أن التحدي بالنفاذ لم يقتصر فقط على أقطار السموات، وإنما امتد ليشمل أقطار الأرض، ولو كانت الأرض المقصودة هي أرضنا هذه وحدها لما كان في ذلك تحدٍّ؛ إذ لطالما نفذ الجن من أقطارها، وها هم الإنس يفعلون ذلك الآن بصورة راتبة. وفي تفسير الألوسي (روح المعاني) ما يدعم فرضيتنا أعلاه، فقد جاء فيه: "أخرج العياشي بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا رضي الله تعالى عنه قال: بسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال: والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله تعالى: سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُن."[١١]

---

[١٠] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج٢٨، ص٣٤٠.

[١١] الألوسي، شهاب الدين بن عبد الله الحسيني. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، ج١٤، ص٣٣٩.

الآية الثالثة تدعم أيضاً فرضية السبع المتماثلات من الأرض، ذلك أنَّ الله تعالى ذكر السبع سماوات وطيّها يوم القيامة، ولكنه ذكر بجانبها الأرض مفردةً، مضافاً إليها كلمة "جميعا" ليدلل على أنها عديدة متماثلة الصفات. ويدعم فهمنا هذا ما جاء عن ذلك في الكشاف للزمخشري؛ إذ يقول: "والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان: قوله جَمِيعاً وقوله وَالسَّماواتُ ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر، ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن."[١٢]

الآية الرابعة تؤكد بوضوح أن استخلافنا نحن البشر الذين في هذه الأرض يمتد إلى كل هذه الأراضي السبع المتماثلة بيئياً، والدليل على ذلك أن الخطاب موجه إلينا نحن البشر بأن كل ما في الأرض خلق لنا، ولما كانت كلمة (جميعا) راجعة إلى الأرض، كما في الآية الثالثة أعلاه، فهي دليل على الاستقصاء لكل ما خلق في كل المتماثلات السبع من الأرض، وأن كل ذلك لنا. وجميع التفاسير مما اطلعت عليه تفسر كلمة (جميعا) في هذه الآية على أساس أنها حال من (ما)، أي خلق لكم جميع ما في الأرض، والذي أراه أنها ترجع إلى الأرض انطلاقاً مما ذكرتُ أعلاه من تفسير الزمخشري للآية رقم(٣)، وهو أبلغ في الدلالة على كثرة النعم، واتساع رقعتها، وسخاء المنعم، ولكن لما لم يكن أمر استخلاف الإنسان في كل المتماثلات السبع من الأرض متخيلاً عندهم، بحكم مقتضى الزمان الذي عاشوا فيه، كان منطقياً وسليماً أن يصرفوا المعنى إلى المخلوقات المتعددة في أرضنا الواحدة هذه. وأرى أن جُملاً مثل (ما في السماوات وما في الأرض جميعا؛ ما في الأرض جميعا؛ والأرض جميعا) حيثما وردت في القرآن الكريم ينصرف معنى الجمع فيها، فيما يلي الأرض، إلى المتماثلات السبع من الأرض، ما لم يقم شاهد يصرف المعنى إلى أرضنا الواحدة هذه، وليس إلى جميع المخلوقات المتعددة في الأرض الدنيا هذه، إذ المعنى الأول يستوعب ويتجاوز المعنى الثاني.

---

[١٢] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد. **الكشاف**، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج٣، ص٣٥٦.

الآية الخامسة هي التي تعطينا الدليل على توزع الأرضين السبع على السماوات السبع، ولكنه دليل غير مباشر ومفاده الآتي:

١. الشمس والقمر علاقتهما بالأرض علاقة ضرورية، فهما لازمان لها لتكون الأرض صالحة للحياة، فحيثما توجد الأرض لا بدّ أن يوجد معها الشمس والقمر.

٢. تماثل الأرضين السبع -بيئياً- يقتضي بالضرورة تماثلاً في شمسها وقمرها؛ إذ لو اختلفت الشمس والقمر في كل أرض عنها في الأخرى لانتفى التماثل الأرضي المفترض لأنهما عاملان أساسيان في اكتساب الأرض خصائصها البيئية المميزة. وهذا يعني أن ترد في القرآن الكريم لفظتا (الشمس) و(القمر) بصيغة المفرد دائماً، رغم أنهما بعدد الأرضين السبع، للتأكيد على التماثل كما هو الحال مع كلمة (الأرض)، وهو الحاصل فعلاً في القرآن الكريم؛ ولا يقتضي ذلك إضافة كلمة (جميعا) إليهما للتدليل على التعدد كما أضيفت إلى الأرض؛ إذ يكفي في ذلك إضافة الكلمة إلى الأرض لأنها هي الأهم، وهما لها تبع في ذلك.

٣. وحيثما جاء ذكر الشمس والقمر في القرآن الكريم فذلك باعتبار علاقتهما بالأرض؛ إذ لا ميزة لهما في ذاتهما كنجم وكوكب عن غيرهما من مليارات النجوم والكواكب التي يعج بها الكون. إن الأرض لخصوصيتها التي تميزها عن سائر الكواكب والنجوم، ومركزيتها في خطة الخلق الإلهية العامة، هي التي تُكْسب الشمس والقمر خصوصيتهما عن سائر النجوم والكواكب. لذلك يقتضي ذكر اسم (الشمس) و(القمر) في القرآن الكريم وجود (الأرض) معهما، فإذا ذكر القرآن الكريم أن الشمس والقمر توجدان في كل سماء، أو أنهما بحسبان، دلَّ ذلك على وجود الأرض معهما، وأن ذكرهما إنما يرد بغرض التذكير بدورهما في المِنّة الإلهية العظمى على الإنسان وهي الأرض، وما تم فيها من إصلاح بيئي يناسب حياة الإنسان، وما خلق فيها من نِعم لمعاشه.

٤. الآية الخامسة أعلاه تشير إلى أن في كل سماء من السماوات السبع الطباق قمراً منيراً وشمساً سراجاً، وهو المعنى اللغوي المباشر، ولا داعي لصرف المعنى إلى ما ذهب إليه المفسرون لا لشيء إلا لاستبعادهم في الأصل القضية التي هي موضوع هذا البحث.

٥. إذا سلّمنا بسلامة المنطق والمضمون الذي حوته النقاط أعلاه حصل التسليم بأن الأرض توجد في كل سماء، وأننا نحن البشر مستخلفون فيها جميعا، والحمد لله رب العالمين. ولا تتعارض هذه النتيجة مع ما جاء من تأكيد في القرآن الكريم أن الإنسان خلق من الأرض، وفيها يحيا وفيها يموت، ومنها يخرج تارة أخرى، وأن مستقره لا يكون إلا في الأرض، لأنَّ لفظة الأرض تستخدم هنا في عمومها، وليس هناك ما يحصر المعنى في أرضنا هذه، ولنتذكر أنَّ الإنسان، بنصِّ القرآن الكريم، هبط إلى هذه الأرض الدنيا من أرض أخرى. لذلك نقول، وبالله التوفيق، من عاش من بني آدم في أي من الأرضين السبع ومات فيها، فمنها يبعث. كذلك فإن تواصل الناس بين هذه الأرضين السبع عبر رحلات واتصالات كونية تيسرها علوم وتقنية –لا تخطر على بال أحد الآن– سوف يجعل من اليسير، فيما يخص المسلمين، الحج إلى مكة من أي أرض كانوا فيها، كما سوف يبدع العقل المسلم علوما شرعية جديدة، تنكسف أمامها علومنا الشرعية الموروثة والمستجدة الآن، وتنحلّ بها التحديات التي سوف تواجه المسلم في العالم الجديد.

الآية السادسة تعزز معنى الآية الخامسة وتدعم فرضية تَوَزّع الأرضين السبع بين السماوات السبع، وذلك بذكر الله تعالى عدم قدرة الناس على إعجازه، سواء في الأرض، أو في السماء. ولما كان مفهوماً عدم الإعجاز فيما يتعلق بالأرض، وهي مستقر الناس، فكيف نفهم عدم إعجازهم لله تعالى في السماء؟ المفسرون، لعدم تصورهم بلوغ الإنسان يوما ما أقطار السماوات، ردّوا المعنى إلى يوم القيامة رغم أنه يومٌ تُبدَّل الأرض غيرَ الأرض والسماوات، ويومٌ لا فوت، ويؤخذ الناس من مكان قريب. والراجح لدينا أن الآية تُنْبِئ بأن طغيان الإنسان، وظنه بأنه مستغن بعلمه وعمله عن الله تعالى، وخارج عن قدرته، لن يقتصر على الأرض التي هو ظاهر فيها اليوم، بل سيصحبه في رحلته الكونية وهو يجوب أرجاء ما سُخّر له من السماوات والأرض جميعا. ودلالة الآية على قضيتنا هي أنه لما قضى الله تعالى أنَّ الأرض وحدها هي التي فيها يحيا الإنسان، وفيها يموت ومنها يخرج، فإن حركة الإنسان الكونية تقتضي بالضرورة أن تكون هناك أرضون تتوزع على الكون كله حتى يستقر الإنسان فيما يصل إليه منها ويعمرها ثم يستأنف مسيرته إلى ما وراءها من أرجاء الكون الفسيح. ليس ميسوراً من حيث المسافة الزمانية

والمكانية أن يعود الإنسان كل مرة من أطراف الكون إلى أرضه الدنيا ليتزود منها، ويقضي حوائجه، ثم يعود من حيث أتى، ولنا في رحلات الفضاء الحالية المحدودة خير شاهد حيث بدأ الإنسان ينشئ محطات في الفضاء تكون له مرتكزاً يقلل من حاجته إلى العودة إلى الأرض في كل رحلة كونية يقوم بها.

الآية السابعة تثبت وجود الدواب في كل السماوات والأرض جميعا، دون تمييز لدواب دون دواب، ولما كانت كل دابة مخلوقة من ماء، بما في ذلك الإنسان، كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥)، فقد خرجت بذلك الملائكة والجِنّة من أن تكون من الدواب، فالأولى مخلوقة من نور، والثانية مخلوقة من مارج من نار. ولكن الدواب بطبيعتها تحتاج إلى هواء للتنفس، وإلى ماء للشرب، وإلى طعام للغذاء، مما يعني بيئة صالحة للحياة كبيئتنا الأرضية هذه، وهذا بدوره له دلالة مهمة على قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣)، مفادها إمكان حركة الإنسان الكونية مستفيداً من البيئات الكونية المناسبة لمثله من الدواب، ومستفيداً أيضا مما بث الله تعالى في الكون من دابة قد يصلح بعضها لطعامه. والنتيجة المستفادة من هذا الحِجاج هو أن أرضاً صالحة لحياة الإنسان، غير هذه الأرض التي نحن فيها الآن، ومسخّرة له، توجد في الكون الفسيح وتنتظر وصوله إليها وعمارتها، وها هو الإنسان الخليفة يخطو أولى خطواته نحوها، وإنّ غداً لناظره قريب.

لفت نظري دقة التعبير القرآني في استخدام لفظة "أقطار" للنفاذ من السموات والأرض، ولم يستخدم لفظة "محيط"، ذلك أن الأجرام السماوية دائرية الشكل، وللدائرة "قُطْر" و"مُحيط"، ولا يمكن النفاذ من الدائرة عن طريق محيطها لأن تتبع المحيط يعيد المتتبع له من حيث بدأ، في دوران دائري لا نهاية له، ولكن لما كان "القطر" هو الخط المستقيم الذي يمر عبر مركز الدائرة، ويربط بين نقطتين في محيطها، فإن تتبعه إلى نهايته يمكن أن يؤدي إلى النفاذ من الدائرة. ولما كانت أي نقطة في محيط الدائرة تصلح كبداية أو نهاية للخط المستقيم المحدِّد لقطرها فهذا يعني أن لكل دائرة عدداً لا نهائياً من الأقطار

من حيث نقطة البداية والنهاية. هذا المعنى الفني لكلمة أقطار ينسجم واستخدام القرآن لها بمعنى المروق من أي ناحية من نواحي الجرم السماوي والخروج من مجال جاذبيته.

الفرضية الثانية: سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض في السموات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها قبل قيام الساعة.

سوف أورد، أولاً، شواهدي الداعمة لهذه الفرضية العلمية ثم أتبعها بالأسباب التي أرى أنها سوف تدفع بالإنسان وتحفزه لتحقيق هذه الفرضية، والوسائل التي سوف تمكنه من ذلك، وأبدأ بالشواهد من القرآن الكريم، ثم من السنة والسيرة النبوية، ثم من التجربة البشرية المعاصرة.

١. من القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٣-٣٥).

في هذه الآيات تحدَّى الله تعالى الجن والإنس بالنفاذ من أقطار السموات والأرض إن استطاعوا، ثم أكد قهرهم عن ذلك بشواظ من نار ونحاس، ولكن هذا يدل على قدرة الجن والإنس على بلوغ أقطار السموات والأرض لأنه لا معنى لتحديهم بالنفاذ منها إن كانوا عاجزين ابتداءً عن الوصول إليها. وعطف الإنس على الجن في الآية له مغزاه؛ لأن الجن بأصل خلقتها قادرة على الوصول إلى أقطار السموات والأرض، وقد وثّق القرآن ذلك في أكثر من آية، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴾ (الجن: ٨-٩).

إذن عطف الإنس على الجن، الذين يستطيعون بأصل خلقتهم بلوغ أقطار السماوات والأرض، دليل على أن الإنس يستطيعون بعلمهم وعملهم بلوغ ما بلغته الجن بأصل خلقتهم. والإذن للجن والإنس ببلوغ أقطار السموات والأرض جميعا فلأن الله

تعالى قد سخّر لهما ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، والتسخير القائم على الابتلاء والمقتضي للحساب والجزاء يفترض تيسير الوصول إلى تلك الـمُسخّرات لمن سُخِّرت له. ولكن النفاذ من أقطارها جميعا ممتنع في حقهما، رغم تطلعهما لذلك بحكم الجبلّة، لأنه ليس بعد السماء السابعة إلا عرش الرحمن فيما نعلم من السنة النبوية، وهو خارج مجال التسخير.

ولا نرى ما تراه تفاسير القرآن الكريم المختلفة (التحرير والتنوير لابن عاشور مثلاً) من أن التحدي إنما يتعلق بيوم القيامة وليس في هذه الدنيا، وذلك لسببين؛ الأول، هو أن جميع الآيات التي وردت في سورة الرحمن قبل آيات التحدي هذه تتعلق بتبيان عظمة ما خلق الله تعالى من كائنات، بما في ذلك الجن والإنس، وبمنّته وآلائه على الجن والإنس من حيث تسخيره هذا الخلق العظيم لمنفعتهم، وإنكاره عليهم طغيانهم وجحودهم نعمته، وتوهّم استغنائهم بقدراتهم الذاتية عنه تعالى، فتحداهم بما ليس مسخّراً لهم، ومن ثم ليس في مقدورهم. السبب الثاني لردّنا ما جاء في التفاسير هو أن القرآن الكريم يصف يوم القيامة وصفاً لا يسمح بأن تكون للجن والإنس قوة، أو حيلة يمكن تحديها بالنفاذ من أقطار السموات والأرض جميعا، فالأرض التي نعرفها جميعا في قبضة الله تعالى يوم القيامة، والسماوات التي نعرفها مطويات بيمينه سبحانه، والناس يخرجون من الأجداث حفاة عراة مهطعين إلى الداعي، والمجرمون يعرفون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، وكل نفس تأتي معها سائق وشهيد.

٢. من السنّة والسيرة النبوية

ما يدعم فرضية قدرة الإنس، بجانب الجن، على بلوغ أقطار السموات والأرض جميعا متمثلة في عروجه ﷺ بكامل هيئته البشرية وبلوغه أقطار السماء السابعة مروراً بكل السموات التي دُونَها. وإذا كان الرسول، ﷺ، قد تمكّن من ذلك في زمانه بسبب ترتيبات إلهية معينة مثل دابة البراق وحاديها جبريل عليه السلام، وفي ذلك معجزة له، ﷺ، فإن الإنسان اليوم بترتيبات إلهية معينة كذلك، مثل البِدَل الخاصة برواد الفضاء، والسفن الفضائية وحاديها علم الله الكوني الذي شاء الله تعالى أن يحيط به الإنسان، وغداً بعلْمٍ يستغني به

الإنسان في حركته الكونية عن الوسائط المادية، يستطيع الوصول إلى ما سُخّر له من أقطار السموات والأرض. وإنما نسَبْتُ هذه المخترعات البشرية إلى الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦).

٣. الإمكانيات المفتوحة للتطور في قدرات الإنسان

يمكن للإنسان أن يبلغ درجة من العلم تمكّنه من نقل الأجسام المادية الضخمة إلى مسافات شاسعة في لمح البصر، ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل: ٣٨-٤٠).

تدل هذه الآيات على أن قدرات الإنسان في نقل وتحريك المادة بعلمه غلبت قدرات الجن على فعل ذلك بأصل خلقته، وقد يأتي هذا العلم من كتاب الله المسطور (الوحي)، وقد يأتي من كتابه المنظور (الكون)، ولكلٍّ مناهجه التي تناسب أخذ هذا العلم منه. والشاهد أن الإنسان اليوم تتراكم حصيلته من هذا العلم بصورة متسارعة عن طريق تطوير مناهج وتقنيات دراسة الكون، بحيث أصبح يقترب من السقف المعرفي الذي أثبتته الآيات السابقة، فيما يتعلق بالقدرة على نقل وتحريك الأجسام المادية في الزمان والمكان، بما يهيئ الإنسان للقيام برحلته الكونية في أقطار السماوات والأرض جميعا، محققاً مغزى الاستخلاف.

٤. المستقبل المحتمل للخبرة التقانية المعاصرة للإنسان

إن كثيراً مما تحقق في التطور التقاني المعاصر كان خيالاً بشرياً جامحاً، لكنه أصبح حقيقة، فلنا أن نتخيل الإنسان وهو ينتقل من خلال رحلاته المأهولة وغير المأهولة إلى كواكب مجموعتنا الشمسية، ومن خلال استكشاف الكون البعيد عبر تيلسكوباته المدارية ومحطاته الأرضية، بخطوات ثابتة نحو أقطار السموات والأرض، نافذاً من أقطار

أرضه الدنيا التي ذُرِئ فيها باحثاً عمّا يليها من أرض، وهذا أكبر دليل يدعم الفرضية الثانية، بحمد الله تعالى.

إن فرضيتنا العلمية تنبئ أن الإنسان قد بدأ للتو مسيرته الحضارية الاستخلافية التي من أجلها خلقت السموات والأرض، وأن تاريخ الكون وتاريخ الإنسان فيه إن هو إلا مقدمات لهذه المسيرة الاستخلافية القادمة التي سوف تشهد من الأعمال الإنسانية الكونية العظيمة في صلاحها، أو فسادها، ما يكافئ عظمة الخلق الكوني ببداياته ونهاياته المذكورة في القرآن الكريم.

ولكن يبقى السؤال المتعلق بما يحفز الإنسان للخروج من أرضه الدنيا هذه ويبدأ مسيرته الكونية، والوسائل التي سوف تعينه على القيام بذلك. أما الحافز الأعظم لحركة الإنسان الكونية فهو ذات الحافز الذي خُلق فيه فطرةً؛ ليعْمُر الأرض وليتَحقَّق الابتلاء، ألا وهو (تعظيم متاع الحياة الدنيا)، وقد قال الله تعالى في آيات كثيرة إن هذا هو دافع من آثر الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى: ١٦-١٧).

إنَّ مليارات السنين المتبقية من عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا، إن صحت نظريتنا، يتوقع أن تؤدي إلى زيادات سكانية هائلة من البشر تضيق به الأرض بما رحبت، ولن يكون أمام أصحاب الاستطاعة من الناس إلا الضرب في الكون الفسيح، بحثاً عن أرض أخرى للسكن والعمران. والقرآن الكريم يؤكد أن الأصل في العدد السكاني للبشر هو الزيادة لأن "الأولاد" الذين بهم يزيد عدد سكان الأرض هم مكّون أساسي من مكونات المتاع الدنيوي الذي يسعى الناس لتعظيمه ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ (الحديد: ٢٠).

لذلك مهما اتخذ واضعو السياسات السكانية من وسائل لمنع التكاثر البشري فإنَّ مآلهم إلى الفشل، وسوف يظل الناس يتكاثرون، لا سيما عندما تتحسن الأحوال المعيشية والصحية للمستضعفين في الأرض الآن، ومنهم من يرى الزيادة في المواليد نعمة من الله تعالى، والتكاثر العددي مِنْعة، فيتزايد بسبب ذلك عدد المواليد ويقل عدد

الوفيات. فإذا أضفنا إلى هذه القنبلة السكانية الموقوتة تنافس الأنفس البشرية، ليس بتقواها ولكن بفجورها، على زينة الحياة الدنيا (المال والبنون) فإن فساداً عظيماً وشراً مستطيراً يتوقع أن يعم الأرض فيما تستقبل البشرية من دهرها، بحيث يهرب كل من يستطيع الهرب إلى الكون الفسيح للنجاة بنفسه وبمن يحب. وما الاستعدادات التي تجري الآن على قدم وساق لذهاب الناس في سياحة فضائية، والاستثمارات الضخمة التي تقوم بها الشركات المتخصصة لإنتاج مركبات فضائية تجارية، والبحث العلمي الجاري في المجالات الزراعية لإنتاج محاصيل ونباتات يمكنها النمو والازدهار في بيئات الفضاء الخارجي، وفي مجالات الأغذية لإنتاج أنواع من الأطعمة يمكنها الصمود لأمد طويل في رحلات فضائية تمتد لآجال طويلة، ما كل ذلك إلا إرهاصات لما تتحدث عنه هذه الورقة. والآن هناك نفر من البشر انتدب نفسه للسفر والإقامة بلا عودة في كوكب المريخ في إطار ترتيبات فضائية يجري الإعداد لها.

أما وسائل تحقيق تلك الحركة الكونية القدرية للإنسان، فهي العلم الكوني والتقنية التي يطورها الإنسان بأسباب من هذا العلم. علينا أن نتذكر أن التقدم العلمي والتراكم المعرفي المدهش والمتسارع الذي تحققه البشرية الآن، وما ترتب عليه من تقنية ومنجزات حضارية واستكشافات فضائية، تمّ في معظمه خلال القرنين الماضيين فقط من عمر الإنسان على هذه الأرض، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأمد الزماني لما تبقى من عمر الكون، بحسب استنتاجاتنا في هذا البحث، قد يمتد إلى بضع مليارات من السنين يواصل فيها الإنسان مسيرته العلمية والتقنية، المتسارعة والمتراكمة، بما يحقق في مجال المادة مضمون الآية: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) توصلنا إلى نتيجة معقولة مفادها أن الكون المسخر للإنسان كله، بسماواته السبع والأرض المماثلة لها عدداً، سوف يكون في مدى الاستكشاف والاستخلاف الإنساني. وهذه الرحلة الاستكشافية هي التي سوف تمكّن الإنسان من الإحاطة بعلم من الكتاب الكوني لا يخطر الآن على قلب بشر، ومن التحكم في مادة الكون اللامتناهية في الصغر والكبر، بحيث تصير حركة الراكب من الأرض السابعة إلى الأرض الدنيا كعرش بلقيس في حضرة نبي الله سليمان عليه السلام، وإنَّ غداً لناظره قريب!

خاتمة:

حاول هذا البحث أن يؤكد أن ساحة الفعل البشري في هذه الدنيا ربما تمتد إلى مليارات من السنين، مع أن عمر الفرد الإنسان في هذه الأرض يمتد من لحظة واحدة إلى مئة سنة، وأن عمر البشرية المتبقى في هذه الأرض ربما يمتد من لحظة واحدة إلى مليارات السنوات، فالحسم في هذا كله إنما هو للخلاق العليم سبحانه.

وقد حاولنا في ضوء ذلك اختبار فرضية الاتساع في المدى الكوني للفعل الإنساني: فقلنا: إنَّ الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان، وقد وجدنا أنَّ ذلك يقتضي قدرة الإنسان على الوصول ببدنه إلى كل الأرضين الست الباقية ليحقق فيها استخلافه، وينتفع بما خلق له فيها، وأنَّ في القرآن الكريم من الشواهد ما يمكن أن تتولد عنه هذه الفرضية.

وتترتب على ذلك أمور تهمّ الأمة الإسلامية اليوم نوجز بعضها فيما يأتي:

١. ضرورة تهيئة الأمة الإسلامية للتطلع إلى الحضور في ساحة علوم الفضاء، للقيام بواجب الاستخلاف التوحيدي في الأرض جميعا، ذلك أنَّ الذين يصلون إلى أقطار السماوات والأرض قبل غيرهم سوف يتحكمون في من يلحق بهم. ليس هناك دين غير الإسلام الذي جاء به محمد، ﷺ، يهدي البشرية للتي هي أقوم في حركتها الكونية، وليس هناك أمة غير الأمة الإسلامية تكون شاهدة على الناس وهم يعمرون الأرض جميعاً من السماء الدنيا إلى السماء السابعة.

٢. إنَّ العلم والتقنية العظيمة التي سوف يمتلكها من يستطيعون الوصول إلى أقطار السماوات والأرض، وكذلك الموارد الفضائية التي سوف تكون تحت تصرفهم تجعلهم قادرين، من على البعد، على فعل ما يشاؤون بمن أخلد إلى هذه الأرض. ولما كان من يكنّون العداء للإسلام والمسلمين هم المبادرون اليوم إلى الفضاء الكوني فلربما يستغل هذا التمكين الكوني ضد تطلعات الأمة وتوظيفها للمتاح من أسباب العلم والتقنية.

٣. لا بدّ من توسيع دائرة علوم الدين بحيث تعود لجميع آيات القرآن الكريم حيويتُها في التأسيس للعلم التوحيدي، المحقق للإيمان والعمران، في جميع امتداداته التخصصية التي تفرضها شروط الزمان والمكان. فكل علم ضروري لإقامة الدين في الزمان والمكان، فهو من علوم الدين، وهو بذلك علم شرعي؛ لأنَّ الشريعة هي الدين كلُّه.

والحمد لله رب العالمين